

المراة اليونانية والرومانية في

شواهد من الأدب الكلاسيكي*

• د. توفيق فهد

• ترجمة: د. محمد حرب فرزات

تلقت العرب وتمثلوا فلسفات الأمم السالفة ولا سيما اليونان بعناصرها
الإيجابية والسلبية وانسابت الى التراث • وفيما يلي بعض السليبات
فيما يخص المرأة ، على حين أعلى الاسلام شأنها أي إعلاء •
« المجلة »

□ المرأة في بيزنطية :

ظلت سورية منذ الاسكندر الكبير وحتى الفتح العربي واقعة تحت تأثير المفاهيم
الاغريقية - الرومانية التي ورثتها بيزنطة • وعلى الرغم من سعي المسيحية
لتحسين ظروف المرأة ، فان الاسرة البيزنطية تبدو أمامنا « كالمملكة المصغرة » (١) • وقد
تحسن وضع المرأة بشكل ملحوظ عن طريق نظام الزواج الذي شجعت عليه الكنيسة ،
ولكن تسوية الأوضاع لم تؤد في الواقع الى تسوية الامكانيات ، فالزوجة لم تكن بنظر
القانون الا حليف الرجل ومعينه وبقي الرجل « رأس الجسم الموحد » الذي تكون بالزواج
(٢) • ويضاف الى هذه التبعية التي خضعت لها الزوجة ، وهي تبعية كانت شائعة في
الشرق وفي الغرب على السواء ، واقع استمر حتى بعد سقوط القسطنطينية في أيام السلطنة
العثمانية : وهو انزال المرأة في بيزنطة ضمن نظام الحريم وأحياناً بحراسة الخصيان (٣) •
ويتعلق الأمر هنا بالسلوك الخلقي الدارج • فبعض الأميرات كن يتصرفن بحرية
واسعة • وبعض النساء كن يتعاليين على أزواجهن ، ولكن هذا كان الاستثناء • وبصورة
عامة كانت المرأة موضع ريب ليس من جانب الرجال وحسب ولكن من قبل النساء أنفسهن
أيضاً •

* من معاضرة للأستاذ الدكتور توفيق فهد (بالفرنسية) ، جامعة استراسبورغ ، فرنسا ، القيت في الندوة الرابعة
« للسماة الانسانية للعلم والعمل في بلاد الشام » ، دمشق ١٩٨٥ •

وفي أحد الأمثال الشعبية ما نصه : « العالم كله يمكن أن يصاب بالخراب ما دامت زوجتي ماضية في تبهرجها » (٤) . وقد كتب سيد كبير من سادة بيزنطة في القرن الحادي عشر وهو كيكانمينوس (٥) يقول (انه لمن الخطر أن يكون الرجل على علاقة سيئة مع امرأة ، ولكن أشد خطراً أن يكون صديقاً لها ، بخاصة إذا كانت جميلة ، لأنه سيكون عليه عندئذ أن يقاوم ثلاثة أعداء : الشيطان والظرف والكلمات الفتانة » (٦) . أما « كازيا » ، وهي من الشخصيات البيزنطية الكبيرة فتقول : « المرأة آفة حتى ولو كانت جميلة ، لكنها ان كانت قبيحة فليس لها الا أتمس الأقدار » (٧) .

أما أن كومنينوس ، مؤلفة **الإلكسياد** (٨) الشهيرة ، وهي امرأة أديبة لم يكن لها نظير في بيزنطة ، فرأيها في المرأة يعكس نظرة الاستخفاف بها : « انهن نداءات جيدات ، لقدرتهن على ذرف الدموع بسهولة ، لكن الأمور الجادة لا تعنيهن ، انهن كالأواني المثقوبة لا يقدرن على كتمان السر » . لكنها تعد أمها وجدتها « آن دالاسين » من الشواذ ، وتكيل المدح « لايرين دو كاس » التي تعرضت لخطر الأسر بيد الأتراك ، لكنها لم تبد أية حركة **ضعف كما تفعل النساء عادة** » (٩) . وفي قصيدة عنوانها « **مرأة النساء** » صور من فسق النساء ، كما ذكر في الكتاب المقدس وفي الأدب الدنيوي وفي الأمثال الشعبية » (١٠) .

وقد اقتصر تعليم المرأة في بيزنطية على قراءة الكتاب المقدس وبعض المعارف الأدبية الأولية (١١) . وحياة المرأة في بيتها الذي لم تكن تخرج منه الا لأداء الواجبات الدينية وإلى الحمامات العامة . كان عليها عندئذ أن تغطي رأسها بنقب ملون يحيط بأعلى الوجه ويلف من الأمام ليسقط الى الخلف (١٢) .

لقد دامت عزلة النساء حتى نهاية أيام بيزنطة ، ولقد كتب فرانسوا فيللف أمين سر بعثة دبلوماسية من البندقية في القسطنطينية ، وهو متزوج من سيدة يونانية ، كتب في العام ١٤٢٠ واصفاً هذه العزلة كما يلي :

« النساء لا يخرجن من دورهن مطلقاً ، الا في الليل وعلى الوجه حجاب ، مصحوبات بخادمت ، وعندما يذهبن الى الكنيسة أو لزيارة الأقربين من أهلهن (١٣) » .

هذه صورة للمرأة في المجتمع البيزنطي وقد رسمت بخطوط عريضة . ومن أجل تفهم الدوافع لمثل هذا التحفظ تجاه النساء ، يجب العودة الى المصادر المعنية بالفكر وبآداب السلوك والأخلاق في بيزنطة . وهي ليست سوى الكتابات الأساسية التي تحمل الفكر اليوناني ، من المؤلفات التي بقيت تعتمد للتعليم في مدارس الدولة وجامعاتها .

ولقد اعتبرت دراسة العصور القديمة الوثنية أمراً لا غنى عنه حتى عند أكبر مشرعي الملكية البيزنطية ، باسيل القيساري (١٤) الذي تبعه في موقفه سائر آباء الكنيسة ، وفي وقت متأخر لاحق أيده يوحنا الدمشقي على الرغم من معارضة الرهبان الذين تثقفوا هم أنفسهم بتلك الثقافة القديمة ، التي كانوا ينظرون الى آدابها نظرتهم الى الشيطان لما فيها من وثنية وميثولوجيا (١٥) .

ففي هذه الآداب القديمة نجد أن المفاهيم قد استمرت في الآداب والمعادن الأخلاقية البيزنطية . وأن دراسة صورة المرأة في ثلاثة أنواع أدبية مختلفة يكشف لنا عن الاستمرارية المدهشة في الفكر ما بين اليونان القديمة وبيزنطة .

وقد اخترنا من أجل تأييد هذه الحقيقة ثلاثة أجناس أدبية تمثل الفكر القديم : ملحمة هوميروس ، مسرح اسخيلوس وأوربيديس وفلسفة أرسطو .

□ الالياذة وهوميروس (١٦) :

في عالم الالياذة الملحمي ، الذي سنقصر عليه اهتمامنا ، يبدو كأن المرأة لم تقم سوى بدور ثانوي . كانت محتقرة لضعفها اعتبرت فريسة تقدم للمنتصرين . كانت توكل إليها الأعيان المنزلية الثقيلة وتخضع لمشيئة سيدها، زوجاً كان أم فاتحاً ظافراً . ومع ذلك فإن بطلات الملحمة كنّ يتمكّن من الإفلات من مهانة الوضع الأنثوي .

فالمرأة كانت تبدو في قصائد الملحمة الطويلة ، التي ألّفت على الأرجح في القرن الثامن ق.م ، كأنها كائن محتقر لملها إلى الكذب ولحببتها للتحلي بالذهب ، ولضعفها الذي عدّ نقیصة . وعندما اضطر ديوميديس إلى التراجع سمع هكتور وهو يصفه بالمرأة مستصغراً : « لقد تحولت الآن إلى امرأة ، فرأيها الجبان ، أيتها اللعبة الصغيرة » (٨ ، ١٦٣ - ١٦٤) .

وقد صور احتجاج الأخائيين الذين حرموا من وطنهم طوال تسع سنوات كأنه نحيب الأطفال أو النساء الأرمال (٢ ، ٢٨٩) والأمثلة كثيرة عن الموضوع . ويلخص أجاكس الرأي العام بهذا الصدد ، عند التقائه بأخيلوس ، قائلاً له : « إن فتاة واحدة لا تستحق حقاً مثل هذه الدرجة من الغضب ، خاصة إذا ما كانوا سيقدمون لك سبع فتيات بدلاً عنها » (٩ ، ٦٣٧) .

وعلى الرغم مما كانت تحاط به المرأة من مظاهر الاحتقار ودلالاته فإنها بقيت مرغوباً فيها . وهي كذلك لأنها كائن ضعيف ومعزول السلاح . وهي الهدف الذي تدور حوله المعركة وأسرها يؤدي إلى اندلاع الحرب أو إلى تسجيرها .

وقد دعيت هيلين التي كانت الذريعة الرسمية لحروب طروادة « زوجة المنتصر » وبالنسبة لأخيلوس تتلخص الحرب بهذه الكلمات : « إنها الحرب ضد رجال آخرين لانتزاع نسائهم منهم » (٩ ، ٣٢٧) أما النصر فيختلط بالاستيلاء على النساء وعلى صغارهن .

وبالنسبة إلى الطرواديين ، كان الدفاع عن المدينة يعني حماية النساء والدفاع عنهن . فيعد هكتور بأن ديوميديس لن يحمل معه الطرواديين على مراكبه (٩ ، ١٦٥ - ٦٦) . ويذكر الطرواديين بأن من يموت منهم في سبيل بلده ، يمنح حياته سلاماً لامراته وأولاده وبيته وأرضه ، (١٥ ، ٤٩٦ - ٩٧) .

يقول الشاعر :

« لئن كان الطرواديون قلة فانهم لا تنقصهم الحماسة لكي يزوجوا أنفسهم في المعركة ، فالضرورة تدفعهم الى ذلك من أجل أطفالهم ونسائهم » (٨ ، ٥٦ - ٧) .

فهذه الاستماتة في الدفاع عن المرأة كانت من أجل حمايتها من الأسر . لأن المرأة الأسيرة كانت تعد غنيمة من الغنائم . فعندما يدور رحى القتال ينال المنتصر أثفية أو منضدة ذات ثلاث قوائم تساوي في قيمتها اثني عشر ثوراً ، أما المهزوم فيفوز بامرأة خبيرة بمهارات عديدة لا تساوي أكثر من أربعة ثيران (٢٣ ، ٧٠٤ - ٧٠٥) . ويقدم أجاممنون الى أخيلوس أن يختار أثناء سلب المدينة أجمل عشرين فتاة من الطرواديات ، (٩ ، ١٢٨ - ١٣٠) . وينجح بعض هؤلاء النساء الأسيرات في اكتساب محبة سادتهن وقد يصبحن ذوات حظوة لديهن . فأكيلوس يؤكد باخلاص عندما يتحدث عن بريزيس « أنها الزوجة التي فتنت لبي » (٩ ، ٣٣٦) . ويقول : « ان كل رجل له قلب واحساس ، يحب امرأته ويسهر عليها . وأنا أحب امرأتي من كل قلبي على الرغم من أنها أسرت بضربة رمح » (٩ ، ٣٤١ - ٤٣) .

وعندما تقع الأسيرة تحت رحمة سيدها، عليها أن تكون مستعدة للحب ، وأن تساعد على استقبال الضيوف ، وأن تقدم لهم الشراب (١١ ، ٦٢٤ - ٤١) .

ولكن الوضع يكون مختلفاً عندما توضع تحت رحمة ربة البيت : فانها تكلف عندئذ على الأخص بأعمال النسيج .

ويتميز بعضهن بأعمال تبلغ حد الكمال « كأولئك العاملات الخبيرات بالنسيج اللواتي أتى بهن باريس من صيدا » (٦ ، ٢٨٩ - ٩٢) .

وعلى المرأة ، سواء أكانت أسيرة أم زوجة شرعية، أن تنجز ما يوكل اليها من الأعمال المنزلية . وعلى الأسيرات والزوجات ، على السواء ، القيام بكل ما يسر الرجل المحارب والتفرغ للعناية بشؤون المنزل ، وكن يرغمن في بعض الأحيان على قبول أسيرة مفضلة عند الرجل: فقد فرض أجا ممنون على كليتمنستركريزيس الفتية . وبنظر هكتور ينبغي أن يقتصر اهتمام المرأة على الغزل والنسيج في الوقت الذي ينهمك فيه الرجال بالصراع ، (٦ ، ٤٩٠ - ٣) . ولا تدع امرأة المحارب انساناً يقترب من زوجها البطل بعد عودته من الحرب لقص شعره . ومن النادر أيضاً أن يلمح الشاعر الى سجية من سجايا المرأة أو الى ذكاء الزوجة ، ومع ذلك فان المرأة الكاملة بنظر أخيلوس تجمع شجاعة أثينة الى جمال أفروديت (٩ ، ٣٨٨ - ٩٠) .

ويبقى الجمال هو الصفة الأساسية للزوجة التي يحلم بها المحارب . أما الصفات المكرسة للتفني بجمال النساء فانها تغطي تقريباً كل الجسد برداء من العفة والطهارة . انهم يتحدثون عن « الجمال الكامل » « المزدهر » عن العينين السوداوين وضافائر الشعر المجدول ، وعن الخدود الجميلة ، والسواعد البضة البيضاء . والأعقاب الجميلة ، والنصر

اللطيف والأنداء التي يفصل بينها فراغ عميق . هذه الصورة الجمالية للمرأة التي تقبّع أمام نول الحياكة والنسيج ، والتي ترغب على الاسراع الى السرير لتلبية رغبة رجلها عند أول اشارة ، لا تنفي مطلقاً الدور الحقيقي للمرأة في المجتمع وفي الملحة أيضاً . فالمرأة تمثل قبل كل شيء استقرار المنزل ، لا شك أنها لا تستشار في اختيار زوجها : أجامنون يقدم بناته الثلاثة لأخيلوس ليختارمنهن من يرضاها لنفسه .

ولكن حصول المرأة على وضع زوجة شرعية يمنحها أهمية خاصة في المجتمع الذي يصفه هوميروس . والمادة هي أن والد الخاطب هو الذي يتقدم بطلب الزواج لابنه كما فعل والد أخيلوس (٩ ، ٣٩٤ - ٤٠٠) . والفتيات الشابات اللواتي يفزن بالتودد والتعجب يكسبن لأهلن عدداً كبيراً من الثيران (١٨ ، ٥٩٣) ، لأن الخطيب يعد بتقديم مهر ذي أهمية كبرى ويقدمه بالفعل . فقد أجبرهكتور أن يقدم لأندروماخوس هدايا عديدة (٦ ، ٣٩٤ - ٩٤ ، ٢٢ ، ٨٨) وقد يصل مقدار المهر الى مئة ثور بل الى ألف بالاضافة الى أعداد كبيرة من الماعز والغنم (١١ ، ٢٤٣ - ٤٥) . والأهل وحلفاؤهم هم الذين يقررون ما اذا كان مقدار المهر كافياً . ولايمنع تقديم الخطيب هدية الزواج من أن تحمل الخطيبة التي تنحدر من بيت عريق وغني معها من دار أهلها ثروة تحتفظ بها لنفسها .

والاشارة الوحيدة التي وردت في الاليادة الى طقوس الزواج هي صورة مواكب الأعراس على ضوء المشاعل ، والمثلة على ترس أخيلوس (١٨ ، ٤٩١ - ٩٦) وتزودنا الاليادة ، خاصة بمعلومات عن ربات البيوت الطرواديات الموصوفات بـ (بوتينا) كالمؤلّهات و « الشيوخات » بغض النظر عن أعمارهن وتختص بهن ممارسة بعض طقوس العبادة . فقد اختار الطرواديون زوجة أنتينور، تيانو، لتكون كاهنة لأثينة ، وتقدم شيخات طروادة مقدمة الشعب للآلهة (٦ ، ٢٩٨ - ٣٠٠) . وهن بمقدورهن الاسهام الى جانب الرجال في الاحتفالات الدينية . وكذلك لم يُستبعدن من طقوس الشكر التي تلت المبارزة بين هكتور وأجاكس (٧ ، ٧٩ - ٨٠) . وقد رافقن جثمان هكتور عند نقله الى طروادة ، ورددن على نحيب الأميرات (٢٤ ، ٧٢٣ - ٧٦) . وكان باستطاعتهم اتخاذ زمام المبادرة في شأن ديني : فقد اقترحت هيكوب على هكتور تقديم قربان للآله زيوس . (٦ ، ٢٥٤ - ٦٢) ولم تدع بريام يمضي الى المعسكر الاخائي الا بعد انتهاء طقس القربان (٢١ ، ٢٨٣ - ٨٥) .

وحول مكانة النساء في العائلة لا يقدم هوميروس لنا الا القليل . كانت بنات بريام وكناته تقمن في القصر ما عدا أندروماخوس وهيلين اللتين كانتا تقيمان في قصرين مستقلين لما لزوج كل منهما من مكانة بين أبناء بريام . وهيلين تشكو من سوء استقبال حماتها لها وكذلك سوء تصرف أبناء حميتها وبناته معها : وكان لهم بعض العذر في اساءة استقبالها . وقد وقف بريام وهكتور وحدهما الى جانباها وأشفقا عليها وساعداها في شدتها على مجابهة الهزء بها والكلمات القاسية التي كانت توجه اليها (٣ ، ١٦١ - ٦٥ ، ٢٤ ، ٧٦٢ - ٧٢) .

ويمكن جمع شواهد من الملحمة تظهر أن الأميرات الطرواديات كن يتمتعن بدرجة متميزة من الحرية في السلوك والتعبير: وتقدم هيكوب ، الزوجة الأولى لبريام ، وهيلين زوجة باريس على ذلك أمثلة ساطعة . ولكن الحال على خلاف ذلك بالنسبة الى سائر النساء .

وتسمح سياسة المصاهرة للنساء بالتدخل في السياستين الداخلية والخارجية . ولكنها مداخلات كانت مشروطة بما للمرأة من شخصية وبما تحرزها من محبة تنجح في بذرها وتوليدها في قلب الزوج .

وسواء أكانت المرأة محتقرة ، أم كانت على الأغلب مرغوبة وأحياناً محبوبه ، فانه باستطاعتها أن تقوم بدور حاسم في العالم الملحمي ، للمكانة الرفيعة للمرأة في عائلتها أو لشخصيتها بذاتها . وتقدم الأميرات الطرواديات أمثلة رائعة على ذلك : فقد توصل بعضهن الى اقامة علاقات متكافئة مدهشة مع أزواجهن وطالبن بأن تكون مكانتهن محفوظة لهن مع حق التعبير بحرية ، مما يمثل وجهاً من وجوه الأصالة في الإلياذة . وليس من المستبعد أن يكون وضعهن المميز عائداً الى مخلفات المجتمع الكريتي والى ما أضفى عليهن من سمات البطولة في الملحمة ذاتها .

هذه الشخصيات الاستثنائية استطاعت أن تصل الى أسماع الجمهور في القرن الثامن ق.م. وهذا مما يسمح بالافتراض أن سكان مدن آسية الصغرى الذين ترددت على أسماعهم أناشيد الملحمة لأول مرة ، كانوا على استعداد للاعتراف ببعض الحقوق في المساواة والحرية لبعض النساء في التأليف الملحمي على الأقل .

□ المشرح :

بعد أن تناولنا الملحمة ، لنر الآن صورة المرأة في المشرح اليوناني الذي يفترض أنه يعبر عن أفكار ومفاهيم العصر . ونختار لهذا الغرض المسرحية الأولى من ثلاثية اسخيلوس ، « المتوسلات » التي يبرز فيها الصدام ما بين الرجل والمرأة . في هذه المسرحية ، التي كتبت بعد ٤٦٦ ق.م . ترفض بنات داناوس الزواج الى أبناء عمهن ايجيبتوس ، رغم الحاج هؤلاء الشباب الخاطبين . حتى أنهم فررن مع والدهن والجآن الى مدينة أرجوس حيث حصلن هناك على حق اللجوء . وأخذن يتوسلن الى الاله زيوس ليحميهم بصفتهم نساء من أعدائهن بصفتهم رجلاً ، معتبرين كأثوال النحل من الذكور السفهاء . (٢٨ - ٣٠) يتحرقون شهوة (٨١ ، ١٠٤) . ويلمحن بعد ذلك الى انحذارهن من نسل ايو كاهنة هيرا في أرجوس ثم ينشدن : عسى أن ينجو الأطفال المنحدرون من أم جليلة من معانقة الذكور ويكونون أحراراً من القران ، أحراراً من النير « (١٤١ ، ١٥١) .

إنهن يرين الزواج كالعبودية ويرفضن تبعاً لذلك ، أن يكن جاريات ايجيبتوس . ولأنهن كن يخشين هجوماً يقوم به أبناء ايجينوس فانهن دعون ملك أرجوس الى ادراك « النزوة المفائقة الحد عند هؤلاء الذكور » (٤٢٦) ثم يصرخن جميعاً بصوت واحد : « لن أقع أبداً فريسة بيد الذكور المنتصرين » (٣٩٣ - ٩٤) .

ويجد الملك نفسه عندئذ في مأزق : اما ان يشعل الحرب ما بين الأرجيين (أهل أرجوس) والاييجيتيين (القبطيين) وأما أن يعمل على إثارة غضب زيوس والآلهة الآخر حماة « المتوسلات » . وتستعين النسوة بما لهن من فتنه وتنتهين الى التهديد بالانتحار شنقاً بتعليق أنفسهن على تماثيل آلهة البلاد : فأى خرق للاقداس يكون هذا . ولكن كيف السبيل الى المغامرة بحرب لن تكون عاقبتها « سوى الخسارة المرة بسفح دماء الرجال من أجل النساء » (٤٧٦ - ٧٧) ؟ وهنا تتجلى بوضوح مفاهيم اللامساواة واستحالة المقايسة أو الموازنة فيما بين الرجال والنساء والمواطنين والنساء الأجنبية .

ويقرر الملك أن يستشير مجلس المواطنين في أرجوس . فيقرر المجلس منح « المتوسلات » حق اللجوء . وتفسر النسوة هذا التصويت بالعبارات التالية : « ان مواطني أرجوس لم يصوتوا الى جانب رجالهم احتقاراً لقضية النساء » (٦٤٣ - ٤٥) .

ولكن بعد الفرح الذي ملأ قلوبهم أمام هذا النجاح جاء الخوف . ففي الواقع أن داناوس آياهم ، أعلن عن وصول مركب على متنه رجال سود . انهم رجال اييجيتوس . وأخذن يناشدن أباهن أن يبقى الى جوارهن . ثم أعلن قائلات : « وحدها المرأة ما قيمتها ؟ لا يسكنها أريس (ابن الاله زويس) » (٧٤٨) . ثم أخذن ينشدن معاً : « انني أكاد أموت هلعاً ، أود أن أموت معلقة بأنشطة قبل أن يرفع رجل لعين يده ليلمس جسدي » (٧٨٧ - ٩٠) ، وأكثر من ذلك يا ليت الموت يدهمني قبل سرير عرسي » (٨٠٤ - ٥) . ثم يتضرعن الى زويس مرة أخرى لكي يحميهم من النزوة الفطرية في الذكر ، (٨١٧ - ٨١٨) .

ثم يصل رجال اييجيتوس ، ويطلب بشيرهم تسليم النساء . وعندما رفضن حاول جرنهم بالقوة . فرفعن صوتهن بالاحتجاج على العنف الذي يتعرضن له . ويعبر الملك عن دهشته من سوء سلوك الرجل ويسأله : « هل تظن أنك أرسيت مركبك في مياه دولة يحكمها النساء » (٩١٢ - ١٣) ؟ ويخبره بالقرار الذي اتخذته الأرجيون وهو « ألا يترك للعنف جماعة من النساء » (٩٤٤) . ويجيب نذير رجال اييجيتوس عندئذ ! « ليكن الانتصار والفتح للذكور . » فيرد الملك قائلاً : « ستواجه ذكوراً في هذه البلاد » (٩٥٠ - ٥٣) .

هكذا يظهر في هذه المسرحية التناقض وحتى التصادم ما بين النساء « المتوسلات » الضعيفات المثيرات للشفقة ، العزلاوات من كل وسيلة للدفاع وللمقاومة أمام مطامع أبناء عمهن ، ومن جهة أخرى ، القوة والعزيمة عند الرجال : أما أولاد اييجيتوس فقد كانوا أشداء مهددين متشوقين الى الزواج بهؤلاء النساء ، حتى ولو كان ذلك دون ارادتهن ، وأما رجال أرجوس فكانوا وعلى رأسهم الملك القوي الشديد الشكيمة ، قد استقروا على الرأي : ألا يرضخوا وأن يمنعوا النساء اللواتي في حمايتهن من الغزاة .

ولكن لتفادي الحرب تزوجت الدانائيات بأبناء عمهن . لكنهن قتلن أزواجهن ليلة الزفاف ، الا واحدة منهن هييرمسترا ، وفترت حياة زوجها لينكست ، وبهذا الزواج تمت المحافظة على بقاء السلالة الملكية في أرجوس .

ان هذه المرافعة ضد الزواج الذي نستخلصه من هذه المسرحية يخفف من وقعه ما جاء في مسرحية الدانائيات (التي تكون مع مسرحية أخرى بعنوان «السبعة ضد طيبة»، المسرحية الأخيرة في هذه الثلاثية) . تظهر افروديت لتلقي مديحاً رائعاً للزواج الذي اعتبر هكذا أنه أفضل علاقة طبيعية ما بين الرجال والنساء ، بانسجام ينبغي أن يحل محل العنف العبدواني عند الذكور ومحل النفور عند النساء بالصورة الساطعة التي قدمتها لنا مسرحية المتوسلات .

وأكثر من ذلك اثارة هي هذا البغض للنساء الذي نجده عند اتيوكليس ملك طيبة في مسرحية « السبعة ضد طيبة » . ولنستخرج باختصار هذا المقطع الذي يعبر بوضوح عن عداوة المرأة : « انهن مخلوقات لا يمكن احتمالهن . محترقات عند ذوي التفكير السليم لن أكون أبداً رفيقاً لذرية النساء . ان انتصرت المرأة كانت جراتها لا احتمال لها . وان خافت كانت الشقاء الأكبر لأسرتها وللمدينة » (١٨٨) (١٧) .

ويبدو هذا الموقف العدائي للمرأة أكثر حدة عند أوريبيدس فمأساته التي تحمل عنوان « لوم النساء » . ونزعة اللوم هذه أصبحت في اليونان عادة مألوفة ، تعتبر بوضوح عن ذلك . « من يتوقف عن عيب المرأة يكون سيء الحظ فاقداً للحكمة » (في معارضة ما بين الحكمة (Philopsogos) والفيلسوف (Philosophos) ، كما نقرأ في المقطع ٣٦ من ايولي » .

ان الطبيعة الأنثوية التي ولدت من انتقام الآلهة أو أخرجت من المادة بصورة وهمية ليس فيها ما يماثل شوكة الرجال . انها بطن قبل كل شيء ، معدة وجنس ، انها مستعبدة للضرورات الطبيعية ومهما كانت نواياها المحتملة رائعة ، فانها لا تستطيع أن تتكلم الا بهذه اللهجة الفارغة والمدلّسة ، الدنيئة والمشوهة النابعة من أصولها . ومهما يكن فانها لا تستطيع بأي حال من الأحوال أن تصل الى المعرفة (لوجوس) ، الى هذا الخطاب الواضح والبيّن الدلالة الذي يكون أساس الجماعة السياسية . ففي مدينة الكلمة (لوجوس) لا مكان للمرأة ، لأنه بالفعل ليس للكلمة حق الوجود في حاضرة النساء . ولندكر أن اصطلاح (Polites) (مدني / مواطن) ليس له من تأنيث في اللغة اليونانية .

لوم النساء عند أوريبيدس ينتظم في معظمه حول عدم امكانية تكييف المرأة بصورة جذرية ، تلك الصورة التي تبدو فيها ، في قصة « باندورا » كأنها شرك للبشر . كل شيء عند المرأة سيء ، حيلها لا تنتهي ، خياناتها لا حدود لها ، تضرب عرض الحائط بكل عهد مقطوع يمكن أن يسمح بوجود حياة اجتماعية . لا يمكن التمييز عندها بين الصدق والكذب . ان كلام رجل واحد يساوي كلام ذرية النساء بكاملها (هيوليت ، ١٢٤٩ - ٥٤) وتملك النساء قدرة لا حدود لها على الاختلاق ؛ هذه العبقرية في الاحتيال تمكنهن من التفوق على الرجال .

تذكر أندروماخوس جاريته بمقدرات طبيعتها : « انك ستجددين في نفسك ، بكونك امرأة ، أكثر من حيلة » ، (اندروماخوس ، ٨٥) .

والموضوع الثاني الذي يتناوله أوريبيدس ، وهو يرتبط بالموضوع الأول ، ألا وهو (الموريا الأنثوية) أي الجنون الجنسي عند المرأة . وذلك انه اذا كانت النساء كائنات فوضويات ، فانهن يخضعن مع ذلك الى مبدأ ، هو عندهن مبدأ أساسي : (اللوخوس) ، الفراش الأفق الوحيد الذي تتطلع اليه النساء وهو مهمن الوحيد .

نقرأ في ميدي (Médée) (٢٦٤ - ٦٥) هذا التحديد للشرط الأنثوي : المرأة عامة هي أسيرة الخوف ، جبانة في المعركة ، وعند رؤية الحديد (أي السلاح) ولكن ما أسرع تغيرها عندما تشعر بأي غبن في حقوقها في فراشها ، حتى أنها لتلطيخ يديها بجريمة القتل ، فالنساء مجنونات بفراشهن وان كليتمنسترنفسها توافق على ذلك فتقول : « النساء هن شيء مشوش ، لا يمكن انكار ذلك » (الكترا ، ١٠٣٥) . فالجنس يلغي الذوق عند النساء ويل للرجال الذين أرغمتهم ارادة الآلهة الجائرة على أن يمروا بسرير النساء لكي يحرزوا الخلود ، (الطرواديات ٩٨٩ - ٩٩٠) .

ولا يعتمد الموضوع الثالث عند أوريبيدس عن الموضوع السابق . المرأة تقتل ، والجنون الجنسي عند المرأة ليس سوى وجه من وجوه عبقريتهن المخيفة في التدمير . ويبدو الزواج واحداً من هواجس أوريبيدس :

فأشخاص مسرحياته من الذكور يكررون الكلام عن مخاوفهم وعن المخاطر التي يقدمون عليها لقاء اخلاصهم من أجل تأمين رغد المدينة بنصيبها من المواطنين . وأي كلام أشد بلاغة من المقطع ٤٦٤ من الكريديات الذي تتردد فيه هذه الدعوة : « تزوج ! تزوج ! ثم مت بالسقم أو بحيلة امرأة ! » وهو يخاطب رجلاً كان تزوج من زمن قريب . أما المقطع ٧٧٥ من فائيتون فتقرأ فيه : لقد كان حراً ، ها هو الآن عبد سريره ، باع جسده لقاء هدية الزواج ! » .

لكن رد الفعل المذكور على كيد النساء لم يتأخر : فعل الذكر استدعى جريمة قتل الأم . ها هو أورستوس يجد ما يدافع به عن قتله لأمه كليتمنستر بهذه الكلمات : « اذ تصل النساء الى هذه الدرجة من الجراة حتى يقتلن أزواجهن وهن يبغثن عن ملجأ عند أولادهن ، ويستجدين الشفقة بأثدائهن ، فلا يكلفهن بعدئذ شيء أن يقتلن رجالهن عند أول مطعن يوجه اليهن . لكنني ، أنا ، وبعمل يوصف بالفضاعة وضعت لهذه العادة حداً (أورستوس ٥٦٦ وما بعد) وفي مجلس الشعب (الجمعية العامة) وقف فلاح ليطلب تكريمه بوضع تاج على رأسه ، لأنه أراد أن ينتقم لأبيه بقتل امرأة مذنبه وكافرة ! » .

وهكذا نجد أن أوريبيدس ، بدفعه موضوع كراهية المرأة الى أقصى الحدود أثر في كل النظام الاغريقي الكلاسيكي وهو يلقي الضوء على منطق عميق لردود أفعال سطحية ، لم تكن لتثير دهشة أي انسان بعد أن أصبحت تقليدية . أن من خصائص المسرح أن يقدم للمشاهد ما يمرض للنظر فيه وللتخلص من الحقيقة المباشرة ، التي هي الشطط في نظام عقلي بكامله .

كيف يمكن العمل على احياء مدينة دون نساء الا اذا مس الناس بجنون أو فقدوا القدرة على الادراك (٨١) ٩

□ الفلسفة :

ان دونية المرأة طبيعياً وأخلاقياً كما تبنت لنا في الملحة وفي المأساة المسرحية هي بالدرجة نفسها من الوضوح وربما بدرجة أشد في الفلسفة فالمرأة تعرف بجسم أضعف من جسم الرجل وبقدرة أقل على الاحتمال ، عند فلاسفة اليونان من كنزنيون الى أرسطو مروراً بأفلاطون ففي الكتاب الخامس من الجمهورية لأفلاطون يؤكد الفيلسوف أن المرأة هي دون الرجل في كل شيء . وأرسطو يدعم في العديد من كتاباته الرأي القائل بتفوق الرجل على المرأة ويقيم ما بين الجنسين علاقة تسلسلية تقابل العلاقة التي تقوم في العائلة ، وفيها يخضع العبد لسيده ، والابن لأبيه ، كالعلاقة في الانسان نفسه ، اذ تخضع النفس للجسم ، وفي النفس تخضع الرغبة للعقل .

وتعتبر هذه الدونية على أنها من عمل الطبيعة . لكن الطبيعة في الفكر اليوناني تتحدد غالباً بالرجوع الى العالم الحيواني (١٩) ومن هنا قد يكفي من أجل تفهم أفضل للآراء التي تلقيناها عن المرأة ولتقدير وزن الأحكام المسبقة المعادية للمرأة أن نلجأ الى ثلاثة أبحاث بيولوجية هامة لأرسطو وهي « تاريخ الحيوان » « تكوين الحيوان » ، « وأجزاء الحيوان » .

وينطلق أرسطو من مبدأ يقوم على غياب الانقطاع ما بين العالم الانساني والعالم الحيواني أما أفلاطون فيؤكد في كتابه « الجمهورية » (٦٢٠) وبشكل أكثر وضوحاً في « طيمائوس » (٩٠-٩٢) أن الحيوانات ليست سوى مسوخ من الانسان : يقول ذلك في حديثه عن تناسخ الأرواح . ويقدم أرسطو مبدأ استمرارية الأجسام الطبيعية في مواضع متعددة من كتابه « تاريخ الحيوان » .

وفي البيولوجية الأرسطية ، يعد الانسان المخلوق الوحيد المستقيم القامة المنتصب على قائمتين ، وهو الأكمل بين الأحياء فليس فيه شيء من خلق حيواني غير طبيعي ، بل على العكس ، انه أعلى الكائنات الطبيعية مرتبة وهو الوحيد الذي هيئت أجزاؤه الطبيعية للقيام بوظيفتها بحسب النظام الطبيعي (انظر أجزاء الحيوان ، ١٠ - ١١) .

فانطلاقاً من هذه التسلسلية اختار أرسطو أن يدرس الخصائص المشتركة بين كل هذه الكائنات ، فيمكن أن نتوقع أن يأتي على ذكر المرأة دون انقطاع عند وصفه لاناث الحيوانات . وبما أنه اعتبر الرجل أقوى المخلوقات ذكورة ، لأنه يقذف أكبر كمية من المنى بالقياس الى حجمه ، اعتبرت المرأة بالتالي الأقوى أنوثة بين الاناث لأن الطمث في الدورة الشهرية عندها أشد غزارة مما عند سائر الاناث .

وبعد أن يضع أرسطو هذا المبدأ يسقط على اناث الحيوان سلسلة من صفات عامة من صفات النساء : « نعومة وليونة » منسوبة الى كليات لاكونيا ويضيف اليهما أيضاً كل العيوب المتصلة بتقاليد كراهية المرأة التي تعود على الأقل الى عصر هزيودس كالجبن ، وفتور الهمة والحسد والعدوان والوقاحة والغدر ، كل هذه الصفات يعزوها الى اناث الحيوان : واذا ما طبع « الشاعر سيمونيد » ، في قصيدة عنوانها : « هجاء النساء » ، المرأة مضافاً عليها أوصافاً استعمارية من عالم الحيوان ، فعالم الطبيعة « أنس » الحيوانات باضفاء صفات المرأة عليها (٢٠) .

ويمكن تصنيف أفكار أرسطو حول الذكر والمؤنث (٢١) تحت العناوين التالية :

١ - الذكورة والأنوثة .

٢ - أشكال المرأة : المرأة الخصية ، المرأة - الطفل ، المرأة - القرد .

٣ - ما يقال عن الدونية عند النساء .

٤ - السلبية في الأنوثة .

١ - الذكورة والانوثة :

١ - تتميز الذكورة بفضيلة الشجاعة ، لأن الاناث هن دائماً أقل شجاعة من الذكور . وهذا التفوق عام الى حد أنه يتبدى بوضوح على كل المستويات من الأعلى الى الأسفل عند كل الكائنات الحية .

وعند أرسطو يتوازن هذا الاختلاف مع سلسلة من الاختلافات التشريحية. فالذكر لكونه هو الأقوى والأكثر شجاعة فهو الوحيد المزود بأعضاء تساعد على الهجوم وعلى الدفاع كالمنachus والأظفار والقرون والأسنان الناتئة ، وأجزاء أخرى من الجسم من هذا النوع .

هذه الأجزاء قد يختص بها الذكر وحده أو أنها تكون أكثر تطوراً عنده . وتوجد أيضاً شجاعة أنثوية . ولكنها أقل من شجاعة الذكر (مثلاً ، اناث الفيلة المستخدمة في الحرب ، وتوصف شجاعة الذكر بأنها « مسيطرة » . أما شجاعة الأنثى فتوصف بأنها « خاضعة » : « فالرجل يمكن أن يعتبر جباناً اذا كانت شجاعته بدرجة شجاعة المرأة » (السياسة) . واذا بدت اناث الدببة والنمور أكثر شجاعة من ذكورها فذلك يعود الى حقيقة مفادها أن الطبيعة وسّعت عليها في صفاتها الأنثوية (أربع حلقات لا اثنتان) . وتستعين أنثى الفهد ، وكذلك العنكبوتة ، بما تملكه من وسائل أنثوية ، كالخداع والاغراء عند أنثى النمر . والنسيج وهو شغل خاص بالاناث عند العنكبوتة . وتبقى النحلة ، وهي عاملة مسلّحة بابرة ، بينما ليس لليعسوب مثلها . وفي هذه الحالة يضطر أرسطو الى تفسير الأمر بعدم الانتساب الى الجنس المذكور: ان اليعاسيب المزيفة ليست مذكرة . وبالعكس ان امتلاك « أداة للدفاع » ، كالابرة ، يكفي للبرهان أن العاملات ينبغي أن يمتلكن في أنفسهن ، كالتبات ، « جنس الذكر و جنس الأنثى » .

ثم ان تصرفاً ذكورياً وعدوانياً عند الأنثى يؤثر بشكل خطر في أنوثتها ، حتى انه يمكن أن يؤدي الى اختفاء خصائصها . ويذكر أرسطو على ذلك مثالا هو أن اناث الدجاج عندما تنتصر على الديوك تأخذ بالصياح كالديكة وتحاول السدف وعندها تنتصب أعرافها وترتفع ذيولها . . . »

ب (وتتبدى الأنثوية بشكل خاص في حب الأم لأبنائها ، وهو ما يتعارض مع الشجاعة الذكرية .

فالاناث لا تبدو عندهن بادرة ذكاء أو شجاعة الا عندما يندفعن بغريزة الأمومة ، ويضرب مثلا الطيبة ، والحجلة والكليات والدبية ، التي تخترع وسائل لحماية صغارها ويقدمن عند ذلك أمثلة من بطولات الأمومة . ويفسر كزينوفون (في الاقتصاد ٢٤) تفوق المرأة على الرجل في هذا المجال بأن العناية الربانية قسمت للمرأة من الحنان « على الطفل الوليد أكثر مما قسمت للرجل » .

فغريزة الأمومة تتلازم مع تطور الحلمات . « وذلك لأن الطيبة وضعت هنا مخزوناً احتياطياً لتغذية الأطفال الحديثي الولادة » . وتبقى العناية بالأطفال بنظره من مهام الأنثى أصلاً ولا يمكن للرجل أن يشغل نفسه بذلك دون أن يتعرض للتأنيث ، أي لهبوط القيمة . فعند الطيور مثلا يكتسب الذكر صفات أنثوية عندما يسلك سلوك الأم . والخلاصة ان أرسطو يقيم صلة وثيقة ما بين الأنثوية والعناية بالأطفال .

٢ - أشكال الأنثى :

عندما يقابل أرسطو ما بين الأنثوية والذكورة ، لا يعترف للجنسين بالمساواة في الفروق . لناخذ مثالا على ذلك قائمة الأضداد الفيثاغورية في الكتاب الأول من ما وراء الطبيعة ، حيث يضع المذكر في الجانب الطيب والمؤنث في الجانب الردي ، وانطلاقاً من المبدأ القائل بلزوم الفصل ما بين الأحسن وما هو أدنى منه ، فانه يستنتج النتيجة التالية وهي « انه حيثما يكون ذلك ممكناً وفي حدود ما هو ممكن يكون الذكر متميزاً عن الأنثى ، لأن مبدأ الحركة ، أي الذكر ، هو للكائنات التي تولد ، أفضل الموجود » .

وهكذا لا تبدو الأنثى في النظام الأرسطي أكثر من مذكر مصغر « امرأة - خصي » على شكل ما .

فبالإخصاء يتحول الحيوان الى الأنثى . وفي « المشكلات » يقابل أرسطو ما بين الذكور « التامين » وبين الإناث « المشوهين » . وفي تكوين الحيوان يذهب الى حد اعتبار ولادة أنثى انحرافاً لا مناص منه عن الطبيعة ، واعتبار الأنثوية نوعاً من التشويه الطبيعي وهو يعزو ذلك ، مع ديموقريطس الى المادة والى فترة الحمل ، عندما تتكون المضغة أكثر مما يمكن أن يعزى ذلك الى البذرة أو الى مبدأ حيوي وبهذا يصيب أرسطو المرأة بصورة مضاعفة ويبرئ الرجل كلية .

والمرأة ، القريبة من الخصي ، الذي يعد ذكراً مشوهاً ومسخاً اصطناعياً هي قريبة أيضاً من الطفل الذي يعد ذكراً غير تام ، ويؤكد أرسطو على التشابه القائم ما بين « تشكل » المرأة وشكل الطفل ويؤيد الرأي بأن طبيعة المرأة تقترب من طبيعة الطفل ، ونجد أصداء هذه الأفكار في التسلسلية التي يبينها في السياسة (١٢ ، ١ ، ١٢٥٩ ، ٤ - ١٣ ، ٧ ، ١٢٦٠ ، ٩ - ١٤) . حيث يقول ما خلاصته : يوجد من جانب ، الرجل الذي خلق ليأمر لأنه يملك ارادة متطورة تماماً ، ومن جانب آخر ، المرأة والطفل وقد وجدنا ليؤمرا لأنهما يملكان ارادة « مشوهة » ، غير قادرة عند المرأة ، « وناقصة » عند الطفل الذي لم يبلغ حد

نموه . فان كانت مسخاً مشوهاً أو ناقصاً من الذكر ، هل تنتسب المرأة حقاً الى الانسانية ؟ ودون أن يضعه موضع الشك ، يبدو أن أرسطو يميل بالمرأة أحياناً الى جانب الحيوانية ، فهو عندما يوازن ما بين الرجل والقرد يلاحظ بدقة كل ما يجده من فروق تباعد ما بين الجنس عند القرد والجنس عند الرجل ، لكنه ، على العكس ، يقارب ما بين المرأة والهجرس (القردة) قائلاً : ان الأنثى لها أعضاء جنسية تشبه أعضاء المرأة » .

٣ - ما يقال عن الدونية عند المرأة :

أ - لا تتوقف دونية المرأة عند الشكل ، فدورها في الولاء أقل شأنًا بالقياس الى دور الرجل . ففي الواقع أن أرسطو يقيم فارقاً ما بين مني الرجل والطمث عند المرأة ، موازياً للفارق بين الرجل والمرأة ، فاذا كان الطمث مقارباً للمني فانه لا يمكن أبداً الا أن يكون أدنى منه وقد يمكن أن يوصف بأنه « مني نجس » أو مني يسيل بصورة غير كاملة « وغير ناضج » ، أو انه « غير ناضج مطلقاً » . وهو يرد هذا التحضير الناقص وهذا القصور في النضج الى « العجز » عند الأنثى ، وإلى عدم قوتها على توفير الحرارة اللازمة لايصال تطور العملية الى نهايتها . وان هذا النقص في التحضير يعود الى أن دم المرأة أثقل وأشد سواداً من دم الرجل ، وهو أقرب شبهاً الى دم الحيوان .

ب - الدم الرديء لا يكذب : عاقبته ضعف المرأة ، لناخذ مثالا وحسب ، ساقها النحيلتين وشعر بدنهما الناعم وصوتها الضعيف . ولأن النساء أضعف من الرجال فانهن أكثر تعرضاً « للآذى » اذ يكن كالأطفال أكثر استهدافاً من الرجال لهجمات القمل والبراغيث ، لهن « صوت أكثر دقة وأشد حدة » ولهن عدد أقل من الأسنان . وعدد أقل من مفاصل الجمجمة . وهو يبين بالواقع « أن في الجمجمة مفاصل : عند المرأة مفصل واحد ، دائري الشكل ، أما عند الرجل غالباً ما تكون ثلاثة مفاصل تجتمع في نقطة واحدة » .

ثم يمضي في اتهامه الى أبعد من ذلك جاعلاً من الفرق دونية : ان النوع الانساني له أكبر عدد من المفاصل في الرأس ، وللرجل أكثر مما للمرأة ، وان عدد هذه المفاصل هو الذي يضمن لمنطقة الدماغ تنفساً أفضل ، ويختلف حجم الدماغ عند الرجل منه عند المرأة . ويقول « عند الحيوان ، يكون دماغ الانسان هو الأكبر بالقياس الى حجمه ، وبالنسبة الى النوع الانساني ، يكون الدماغ عند الرجال أكبر حجماً مما هو عند النساء » .

ألا وان العضو يحتاج الى تنفس الهواء بما يتناسب مع حجمه ، أي الى مفاصل تعين على التهوية . ومن جهة أخرى اذا كان دماغ الرجل هو الأكبر فمعنى ذلك أن له « في قلبه الحرارة الأشد صفاء » لأن الدماغ « عضورطب وبارد » وظيفته تعديل حرارة القلب . هكذا ، الدماغ ، القلب ، الدم ، والمني ، هي كلها من علامات تفوق الرجل على المرأة .

ويسترسل أرسطو في حديثه عن مراحل تطور المرأة ، التي ينظر اليها على أنها المتخلفة أبداً .

وبالنظر الى مجمل الوقائع مجتمعة . يستنتج أن تفوق الذكر يتجلى في كل مراحل تطور الجنين من الحمل الى الوضع ، ثم يتأكد هذا التفوق بعد الولادة .

٤ - الولادة :

لنقل في ختام هذا العرض حول المرأة في كتابات أرسطو ، ان دونية المرأة ، التي جرى تأكيدها بصورة مباشرة ، يمكن ملاحظتها أيضاً بشكل أدق باضافة الأنثوية بصورة متتابعة الى كل ما هو سلبى .

أ - وفيما يتعلق بالحيز المكاني ، يقدم أرسطو رأيه فيما يلي : « القاعدة العامة هي أن الأفضل والأثمن يكون عندما لا يقوم ما هو أكثر أهمية منه حائلاً دونه . فبالنسبة الى « فوق » « وتحت » ، يكون الأعلى هو الأهم ، وبالنسبة « للامام » و « للوراء » يكون الامام ، وبالنسبة « لليمين » « وللشمال » ، يفضل اليمين .

وفي هذا النظام الأرسطى ، لن يصاب المرء بالدهشة عندما يرى موقع الرجل ، فهو في الجانب العالي أي فوق وفي الامام ، وعلى اليمين ، بينما جعلت المرأة ، عادة ، تحت ، ووراء ، والى الشمال .

ب - أما فيما يتعلق بالمناخ ودرجة الحرارة ، فان أرسطو يؤكد ، بالاعتماد على المعارف السائدة في عصره ، وهو يتحدث عن الغنم ، انه « عندما يقع الحمل وقت هبوب ريح الشمال (وهو النسيم العليل في بلاده) تنجب النعجة ذكوراً على الأغلب ، أما عندما يقع الحمل وقت ريح الجنوب ، فانها تلد إناثاً » . وهكذا ينصح الى الأزواج الذين يودون الذرية أن يكون لقاءهم عند هبوب ريح الشمال (السياسة) .

وهناك مبدأ آخر مناخى يكشف عن دونية المرأة : انها باردة بينما الرجل أعلى حرارة ، والمعروف أن الحرارة هي دائماً حداثى جابى وأن البرودة تعرف بصورة عامة سلبياً بكونها نقي الحرارة .

الحرارة هي دليل الكمال في حين أن البرودة ترتبط عادة بالضعف ، والشيخوخة والمرض ...

أخيراً في نظام أرسطو ، تكون الحرارة الأعلى للرجل ، بالنظر الى انتاجه للمني ، هي التي تملل لنا تعليلاً صحيحاً تفوقه في الولادة . ويكون المولود أنثى عندما يكون المنى سميء النضج ، لنقص حرارة من يصدر عنه ولقصور قدرته على انضاج المادة ، وبناء على ذلك ، اذا كانت الرغبة في انجاب الذكر - لأن انجاب البنت هو شبه اخفاق - يكفي أن يكون المناخ طيباً ، وأن يكون العمر مناسباً (ليس فتياً ولا مفرطاً في الشيخوخة) ، وأن يكون المنى جيداً (متخثراً وكثيفاً وثخيناً) ، ورحماً كريماً .

لنقل في خاتمة الحديث ، ان الحط من قيمة المرأة يتأكد بوضوح عند أرسطو في مفهومه للانجاب حيث يجمع ما بين انجاب البنات وبين عوامل سلبية ويميز دور المنى أي الذكر في الولاد . النسل للرجل وحده والمرأة تستقبل وحسب . والرجل يعطي

« الصورة والشكل » أي « النفس » أما المرأة فتعطي « المادة » « الجسم » . وان بذرة الذكر تشبه البذار، أي ما هو بالحقيقة أصل النبات، والمرأة تشبه الأرض التي تهيء « المادة والجسم » (٢٢) .

□ رومة والمرأة :

من الملحمة الى الفلسفة مروراً بالمرح، رأينا كيف تدهورت بالتدريج صورة المرأة . لقد طبع الفكر اليوناني بلاد حوض البحر المتوسط بطابعه . فالهليينية التي ازدهرت في مصر وسورية وفي الأناضول وبيزنطة لم تقصر في نقل هذا التراث ونشره . لقد رأينا أثر بيزنطة وسوف نرى أثر روما ولكن بايجاز .

سنرى أثر رومة التي احتلت بلاد اليونان والشرق الهليني والتي تبنت وهضمت ثقافتها .

واذا لم تتطور الأفكار اليونانية عن المرأة بانتقالها الى رومة فان نوعاً من العلاقات ما بين الرجال والنساء يبدو أنها هي التي سيطرت عند شعب يعرف عنه أنه نظم العمل : أي ما يتعلق بتوزيع المسؤوليات ما بين الجنسين ، وهو توزيع تصل شفافيته الى حديث عن الأساس الأيديولوجي الذي بُني عليه .

ففي عصر البطولة الذي سبق حروب هنيبل ، انحصر دور المرأة في « اهاجي » ، جوفنال ، مثلاً ، في أعمال الخدمة المنزلية : فما أن تهب من سريرها حتى تلتفت الى عملها في منزلها الذي تعبق فيه رائحة الدخان محاطة بأربعة أطفال صفار وهي تراقب القدور التي وضعتها على النهار لطهي الطعام . وفي صورة ساخرة أخرى ترى المرأة وهي « ترضع من ثدييها الممتلئين أولاداً أشداء لكنهم ما زالوا في سن الرضاع » بينما يقضم الرجل حبات البلوط وهو يتجشأ . ان وراء فظاظه هذه اللوحة التي رسمت على هذه الصورة لاضحاك جمهور يفترض أن يكون مرفهاً ومدنياً ، تبدو ملامح القيم القديمة المرتبطة بالأرض وبتقسيم العمل حسب الجنس وبنوعية العلاقات داخل العائلة في الوسط الريفي ، وكذلك أوساط الفلاحين الذين غادروا بيئاتهم الأصلية ليعيشوا في المدينة . ولم يحل أي نظام قيمى آخر محل هذا النظام حتى انتشار المسيحية . فقيم المدينة ذاتها لم تتغير، لكنها أدخلت في نظام تسلسلي جديد .

ويمكن مع ذلك تمييز مرحلتين في تمثيل المرأة الرومانية : قبل حروب هنيبل نجد المرأة في مدينة فقيرة نسبياً وكادحة ، حيث يقوم كل انسان من الجنسين بدوره ، الفلاح المواطن - الجندي من جهة ، ومن جهة ثانية المرأة راعية المنزل المنجبة النشيطة ، ملجأ الرجل المحارب ، للراحة وللسعادة .

ولكن بعد حروب هنيبل يلاحظ تدهور بطني في كل هذه العناصر . فان اختفاء ملكية المواطن الصغيرة ، وتدفق الثروات واليد العاملة المستعبدة بما حملته من نتائج في

الجيش والحياة المدنية ، كل هذه العوامل أدت الى قلب أسس المدنية والى تهديم الأخلاقية الرومانية القديمة .

ان جزءاً كبيراً مما يوجه من قدح وذم للمرأة ، ومما هو من الموضوعات العامة في المسرحية الهزلية وفي الأهاجي وحتى في الخطب السياسية لرجل مثل كاتون ، يبنى على هذا التصور وما يلفت النظر في مثل هذا النموذج من الخطاب هو تحديد دور المرأة بالنسبة للعمل أو الفراغ . فالوقت الحر أو الفراغ الذي هو للرجل زمن الانجاز هو للمرأة على العكس زمن خطر . فالعمل يفترض حفظ عفة المنزل، اذا ما قبلنا ان الكماليات والفراغ تهددان بدرجة خطيرة النظام الأخلاقي . مثلاً لوكريس يتحدث عنها المؤرخ تيتوس ليفيوس وهي تعمل في غزل الصوف وحياته بينماتقضي كنان الملك الوقت على مائدة الطعام ، وهن مستقلقيات حولها كما يفعل الرجال ، انها لا تمدح لأنها تعمل في الصوف ولكن لأن هذا العمل يعصمها من أن تسقط في مهاوي السوء التي تسقط فيها النساء اللواتي لا ينصرفن الى عمل يشغلن .

هنا اذن ، الموقف مختلف تجاه الرجل عنه تجاه المرأة في ما يخص العمل ، والفراغ . مستشهداً بكتاب الاقتصاد لكنزينوفون في الترجمة التي حققها شيشرون كوليميل (المقدمة ١٢) يبين أن تحضير الطعام هو الذي يخط الحدا بين الناس والبهائم . ومن هذا الواقع يذهب الى ملاحظة الفرق ما بين المهام الملقاة على عاتق الرجل وتلك التي تلقى على عاتق المرأة : « كان من الضروري أن يخرج أحد الجنسين الى الخارج ، الى الهواء الطلق، لتحصيل القوت والمؤنة بعمله وبما يقدر على صنعه . . . ويكون عندئذ من المناسب أن تكون مهمة الأم حراسة هذه المؤنة والقيام بالأعمال الأخرى التي ينبغي أن تنجز في المنزل » ان هذا التقسيم القطبي للعمل على الجنسين وتخصيص مهام لانجازها قائم على أساس طبيعة كل منهما . « فاعمال المنزل ، مخصصة للمرأة ، أما الأعمال التي تتم خارج المنزل فتقتصر مسؤوليتها على الرجل . وقد منحت الآلهة الرجل القدرة على احتمال الحرارة والبرودة ، والأسفار وأعمال السلام والحرب ، أي أعمال الزراعة والجيش ، وخصت المرأة بمسؤولية العناية بشؤون المنزل ، بجعلها غير مؤهلة للقيام بأي عمل آخر » .

هكذا يتضح أن تقسيم المهام بين الجنسين هو في الرأي العام الروماني من عمل الطبيعة وان أي اتجاه لتغيير هذا التقسيم هو سير في عكس الاتجاه الطبيعي ، أي أنه يؤدي الى تقويض نظام الأشياء . ويستنتج من ذلك أن رجلاً يقوم بأعمال انثوية ينتهي بالتالي الى التأنث ، وان المرأة التي تقوم بأعمال الرجال تنتهي من جانبها الى الاسترجال .

وينتظم عمل المرأة حول ثلاث وظائف :

الصيانة والتنظيف وطبخ الطعام ويرتبط باعداد الطعام ، حفظه وتدير الدواء ، والسموم : وتحضير السموم ، هو أسوأ الطبخ ، هو مطبخ الموت ، ويقابله المطبخ الطيب الذي هو الغذاء الذي يحفظ الحياة . وان كل المحاكمات في دعاوى التسميم ، كانت

المرأة موضوعها . فالمهمة التافهة التي تقوم باعداد الطعام ، لا تحتل الا حيزاً ضيقاً في الوثائق ، لأنها من الحياة اليومية ، بالقياس الى الوجه المضاد الشرير ، وهو تحضير السموم ، لكن لا يمكن عزل احدى المهمتين عن الأخرى ، الأمر نفسه يطرح بالنسبة لعمل آخر وهو الانجاب .

ويعد عقم الزواج أكبر لعنة يمكن أن يتصورها زوجان رومانيان . فعلى زوجة المواطن الروماني أن تؤمن له نسلاً . انها وظيفتها الأساس . هذا هو عملها ، وينبغي ألا تفهم كلمة « لا بور » بالمعنى المقصود من دورها في الفراش وحسب ، بل بالمعنى الأوسع . فالحياة لا يمكن أن يفهم لها معنى الا بربطها بالحياة ، بالألم ، والمشقة (٢٣) .

وتطبع الولادة قدر المرأة بطابعها . وبما أن الولد ملك لرب الأسرة فلا يمكن أن يتم الاجهاض الا بموافقة ورضاه . ولم يكن يسمح بممارسة منع الحمل أو الاجهاض الا لنساء من الطبقة الارستقراطية .

ويؤكد جوفيال ذلك بقوله :

« على سرير مذهب لا يمكن أن نرى نساء يلدن ما دامت الممارسات والأدوية التي تجعل النساء عقيمات ناجعة وقادرة على قتل الأجنة وهي في أحرام الأمهات بالثمن الغالي »
« أما النساء الأخريات من عامة النساء فانهن يقبلن أخطار الولادة وكل متاعب الارضاع »
وكان هذا لمدة طويلة من واجبات المرأة الرومانية ، وكانوا يعتقدون أن حليب الأم كبذرة الأب ، له خاصية في خلق ملامح الشبه في الجسم والروح .

واذا كان انتاج الأولاد الأحرار وتربيتهم هو قدر المرأة الرومانية ، فان غزل الصوف هو شعارها ورمزها .

وفي النقوش على الأضرحة في العصرين الجمهوري والامبراطوري تطلق صفة « الغزّالة » ، غزّالة الصوف على كل زوجة جيدة (٢٤) فالعمل في الصوف هو رمز المرأة كما أن العمل في السلاح هو رمز الرجل ولكن على العكس ، يعتبر غزل الكتان ، حسبما يذكر بليينوس ، عملاً مشرفاً للرجل (التاريخ الطبيعي) .

ولكي يبين أن النساء الرومانيات في عصره قد تبدلن يصرح كوليميل : « الآن...
ينصرف معظم النساء الى الكماليات والى الفراغ ، الى حد أنهن لا يتناولن الى العناية باعداد الصوف ، انهن لم يعدن يتذوقن الملابس التي تعدّ في المنزل ويسعدن بالملابس الغالية التي تساوي أثمانها مبالغ باهظة وتستنفد تقريباً ثروات كاملة » (مقدمة الاقتصاد لكزينونون) .

وهكذا يتعارض الكمالي والكسول مع العامل ، فلشاعر الهزلي بلوتوس (٢٥٤ - ١٨٤ ق م) ، يقول في Epidicus ابديكوس « ان زينة المرأة تمنع المواطنين من دفع

ما عليهم من ضرائب ، (٢٢٢ - ٢٣٧) . وفي فن الحب يعتبر أوفيد أنه من الجنون أن يحمل الانسان على جسمه كل ثروته (١٦٩ ، ٣) . وقد اتجه التشريع الروماني نفسه الى وضع حد لميل المرأة الى الكماليات .

وهكذا فان المرأة الرومانية عندما كانت تعمل تحافظ على أخلاقية البيت ، وعندما لا تعمل تثبت غنى هذا البيت ، ولكن في كلا الحالتين تعلي قيمة المرأة كرامة الرجل وخيلاءه أي مكانته (٢٥) .

هكذا ، من هوميروس الى جوفنال ، مروراً باسخيلوس وأريبيدس وأرسطو ، يبقى وضع المرأة هو نفسه . من هذا المعين الثقافي نهلت بيزنطة . فالكنيسة حاولت أن تخفف من حدة كراهية المرأة في العصور القديمة ، باضفاء القداسة على رابطة الزواج ، لكنها لم تفلح تماماً .

★ ★ ★

□ الحواشي :

- 1 — Louis Bréhier, **La civilisation byzantine**, Paris, Albin Michel, 1950 et 1970, p. 18, (Coll. **L'Evolution de l'Humanité**).
- 2 — Léon VI (empereur), **Novelles**, 123, nov. 98; cité **ib.**, p. 19.
- 3 — Bréhier, **op. cit.**, p. 19.
- 4 — K. Krumbacher, **Mittelgriechisch Sprichwörter**, in **Bayerische Akademie der Wissenschaften**, philosophische-philologische Klasse, 1900, 2.
- 5 — **Strategikon ou Logos nouthetikos**, éd. Vasilievsky, 2^e éd., St.-Pétersbourg 1896, cité par Ch. Diehl, **Dans l'Orient byzantin**, Paris 1917, p. 161.
- 6 — Cité par Bréhier, **op. cit.**, p. 20.
- 7 — Cf. Ch. Diehl, **Figures byzantines** (I-II Pars 1906, 1908), I, 134.
- 8 — Ed. et trad. Leib. 3 vol., Paris 1937-46 (Coll. byzantine de l'Association Guillaume Budé), voir IV, 4, 109; XV, 2, 463; Cf. aussi G. Buckler, **Anna Comnena**, Oxford 1929, 116-177.
- 9 — Cité **ap.** Bréhier, **op. cit.**, p. 20.
- 10 — Cf. Krumbacher, **Geschichte der byzantinischen Literatur**, 2^e éd., Munich 1897, p. 556.

- 11 — Ch. Diehl, **Figures byzantines**, op. cit., I, 113, 293.
- 12 — Cf. Sp. Lambros, **La femme chez les Byzantins**, in **Neos Hellenomnemon**, XVII/1923, 272 sq. (en grec).
- 13 — **Correspondance**, in **Revue des Etudes grecques**, II/1888, p. 97.
- 14 — **Aux jeunes gens sur la manière de tirer profit des lettres helléniques**, éd. F. Boulanger, Paris, Helles Lettres, 1935, introd.
- 15 — Brehier, op. cit., p. 415.
- ١٦ — هذا العرض عن المرأة في الالياذة مقبوس من ورقة قدمها م. فورونوف الى ندوة عقدت في استراسبورغ عن (المرأة في المجتمعات القديمة) عام ١٩٨٠-١٩٨١ . وموضوع ورقة فورونوف: « المرأة في العالم الملحمي ، الالياذة » . طبعت وقائع الندوة في استراسبورغ ١٩٨٣ .
- ١٧ — هذا العرض عن المرأة في « المتوسلات » أفاد كثيرا من مشاركة أنطوني ج. بودلكي A. J. Podlecki في الندوة المذكورة أعلاه . المرجع نفسه .
- ١٨ — هذا العرض عن المرأة في مسرح أوريبيدس مقبوس من مشاركة كليرنانسي في الندوة المذكورة أعلاه . المرجع نفسه .
- 19 — Voir U. Dieraner, **Tier und Mensch im Denken der Antike**, in **Studien zur antiken Philosophie**, 6, Amsterdam 1977, pp. 61-65.
- 20 — Cf., à ce propos. N. Loraux, **Sur la race des femmes et quelques-unes de ses tribus**, in **Arethusa**, 11, 1-2/1978, pp. 43-87.
- ٢١ — عن هذه الأفكار التي كان لها دور معرفي سلبي خطير في تكوين الفكر البيولوجي الاغريقي راجع: Cf. R. Joly, **La biologie d'Aristote**, in **Revue Philosophique**, 1968, pp. 219-53; S. Byl, **Recherches sur les grands traités biologiques d'Aristote. Sources écrites et préjugés**, Bruxelles 1980, pp. 210-202.
- ٢٢ — هذا العرض عن مقالات بيولوجية لأرسطو تدين الى مشاركة سوزان سعيد في الندوة سابقة الذكر .
- 23 — Cf. Dieter Lau, **Der lateinische Begriff Labor**, Munich 1975.
- 24 — CIL VI, 10230, 1, 23 (**lanificio**); VI, 11602 (**lanifica**); VI, 15346, 1. 30 (**lanam fecit**). Cf. **Eloge funèbre d'une matrone romaine (Turia)**, éd. M. Durry, Paris 1950 (Coll. des Universités de France).
- ٢٥ — هذا العرض عن المرأة في رومة يدين الى مشاركة جان موران في الندوة المذكورة سابقا .

* * *